AL-IDRAK RESEARCH JOURNAL

OPEN ACCESS
Al-Idrak
Khasais-E-Nabwi (S.A.W)
ISSN (Online): 2789-3227
ISSN (Print): 2789-3235
www.alidrakresearchjournal.com

بلاغة الخطاب النبوي وأثرها على المتلقي

The Rhetoric in the Prophetic Discourse and its impacts on the listener

* **Dr. Fazlullah**
Professor, Faculty of Arabic Language at the International Islamic University in Islamabad, Pakistan.
Dr. Muhammad Amin
Professor, Department of Translation Studies in the Faculty of Islamic Studies, Islamic University of Bahawalpur

Citation:
Fazlullah, Dr and Dr. Muhammad Amin, " The Rhetoric in the Prophetic Discourse and its impacts on the listener."Al-Idrāk Research Journal, 2, no.1, Jan-June (2022): 193– 212.

ABSTRACT

This research discussed the topic: The Rhetoric in the Prophetic Discourse and its impacts on the listener. Accordingly, the paper is divided after the short preface into three main sections. First section explained the meaning of the discourse and declared the basic concept of prophetic discourse, and elaborated the main kinds of it with the examples in details, to convey the message properly to the listener. Second section is entitled as style of the rhetoric in the prophetic discourse and its attractable impacts on the listener, according the prophetic deal with listener as they are differing from one to other. Third section examined the style of semantics in prophetic discourse and its positive impacts on the listener. Ultimately, the conclusion terminates in the results, there come the references the paper exploits.

Key Words: Discourse, Rhetorical Discourse, Prophetic Discourse

الملخّص:

يشتمل هذا المقال على دراسة بلاغة الخطاب النبوي وأثرها على المتلقي، وينقسم البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وإلى ثلاثة مباحث، وخاتمة. أما المقدمة فهي تشتمل على بيان أهمية الموضوع وأسباب اختياره، والتمهيد يتحدّث عن معنى الخطاب ومفهومه، والمبحث الأول يحتوي على بيان مزايا الخطاب النبوي وضرورته في العصر المعاصر، والمبحث الثاني يشتمل على دراسة سمات البلاغة في الخطاب النبوي وأثرها على المتلقي، والمبحث الثالث يتحدث عن سمات

البيان البلاغية في الخطاب النبوي. والخاتمة تقوم بثبت النتائج التي توصّل إليها البحث، والتوصيات، وفهرس المصادر والمراجع.

الكلمات الافتتاحية: الخطاب النبوي – الأحاديث النبوية – البلاغة

فاتحة ومهاد:

الحمد لله الذي خلق الإنسان من ماء مهين، وعلّمه البيان بلسان عربي مبين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد!

لكلّ مقامٍ مقال، ولكلّ خطابٍ عناصر سياقية ومقامية؛ لأن الألفاظ لا تثبت على معانيها التي وضعت لها، إلا إذا كان المتكلّم يستخدمها للمتلقي مطابقاً لمقتضى الحال. ولا شك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – هو أفصح العرب والعجم، قد أنزل الله - سبحانه وتعالى - عليه القرآن الكريم بلسان عربي مبين{**وما يَنْطقُ عنِ الهوى () إنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحى**}[1]. فالخطاب النبوي هو مضرب المثل لكل منْ سمعه، وأنصت إلى ألفاظه، وأصغى إلى معانيه، والمخاطَبُ يجد بمفرداته في أذنَيه نغمة لذيذة، والمتكلّم بكلامه يشعر في فمه حلاوة كحلاوة العسل عند التكلم؛ لأنّ كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يحتوي على أروع الحِكَم، وأصدق الأمثال، وروعة الأساليب في تعليم الناس أمور دينهم ودنياهم بالإيضاح لهم المعقول في صورة المحسوس، والخفي بالجلي، والغائب بالشاهد.

معنى الخطاب لغة:"الكلام والرسالة"[2]، وفي الاصطلاح أنه هو "الكلام اللفظي أو النفسي الموجه نحو الغير للإفهام"[3]. وكلّ الكلام اللفظي يتركّب بلغة المجتمع، واللغة من أهم حاجاته في جوهرها بصلة الإنسان به، والإنسان يتثقّف بثقافة المجتمع وحضارته ولغته، وتظهر المعالم اللغوية والثقافية في شخصية الإنسان للسلوك الذي ينهجه الإنسان لنفسه في المجتمع. والكلام البلاغي يتحدّث عن أسرار القول الجميل التي تكمن وراء نظم مفرداتها، وترتيب كلماتها وسياقها لأداء المعنى وتقويته بالتأثير على المتلقي وإقناع السامع به كون الخطاب مطابقاً لمقتضى الحال.

---

[1] - سورة النجم، الآية 4 – 5.

[2] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، نشره المكتبة العلمية – طهران، بدون تاريخ الطبع، ج1، ص 486، مادة (خ – ط – ب).

[3] أبو البقاء، أيوب بن موسى الكفوي، حققه عدنان درويش، نشره وزارة الثقافة والإرشاد القومي – دمشق، الطبعة الثانية 1982م، ص 486.

للكلام جمال حسي ومعنوي، بأن لا تكون الحروف غير متناسبة ولا يكون النطق بها عسيراً، كما يقول ابن الأثير: إن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات، فاللفظة التي يستلذها السمع منها ويميل إليها الحس وهي الجميل، والتي يكرها السمع ويتنفّر عنها وهي القبيح، ويقول أيضاً: ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة، وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم[4].

لا بُد للكلام البلاغي أن يشتمل على مفردات مألوفة الاستعمال غير غريبة ومأنوسة، وملائمة لما يقتضيه المقام من التعبير الصادق عن الأفكار والمعاني، ولا يمكن أن تأتي بها إلا بمعونة قرائن الأحوال والسياق، وتكييف السياق في الكلام لا يكون إلا بحسب فكر السامع والمتلقي، وكلّما يتحقق التعاون بين السياق وبين عناصر نظم الكلام ويكون هذا الترابط طبعييا بعيدا عن التكلف والتقييد، يزداد الكلام جمالا وروعة[5]. فالحاصل أن الكلام الشفوي الذي يشتمل على طبيعة ألفاظٍ تتطابق مع مقتضى الحال، يرشد إلى اختيار التركيب اللغوي والمعنوي، ويختص بعلاقة الجمل ببعضها وترتبط بسياقها للتأثير على المتلقي، هذا هو الذي أشار إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني بنظرية نظم الكلام[6]. ولا شك أن الكلمة تقوم بدور رئيسي في تكوين الإنسان الروحي وبنائه الفكري والثقافي. هناك صلة قوية بين اللغة والإنسان، فاللغة بُعد من أهم أبعاد الإنسان نفسه، وبمقدار ما يتحقق في الكلام من سموّ أسلوبي، وكمال لغوي، وبلاغة قصوى يتحقق الإقناع والتأثير.

المبحث الأول: مزايا الخطاب النبوي وضرورته في العصر المعاصر

من المعلوم أنّ الخطاب النبوي يبنع منه كلّ أرقى أنواع الخطاب الإنساني الذي وجد اهتماماً كبيراً لاعتبارات عدّة عند الدارسين البلاغيين الذين سارعوا به إلى استكشاف العناصر الجوهرية في هذا النوع. وغرض الخطاب النبوي قد كان إلقاء المعنى المطلوب بتقنيات التأثير على السامع لغرض من الأغرض كترسيخ اعتقاده، ودحض رأيه، ورفع شبهته، واستبدال فهمه،

[4] انظر: ابن الأثير، أبو الفتح، ضياء الدين (ت: 637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، ونشره المكتبة المصرية – بيروت، عام 1420هـ، ج1، ص: 66.

[5] ينظر لمزيد التفصيل: الجندي، الدكتور، الدرويش، علم المعاني، ونشره مكتبة نهضة - مصر، الطبعة الثانية، 1381هـ - 1962م، ص 12.

[6] انظر للتفصيل، الجرجاني، أبو بكر، عبد القاهر (ت 471هـ)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، حققه محمود محمد شاكر أبو فهر، ونشره دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة 1413هـ - 1992م، ص 64.

وتعديل سلوكه برعاية سياقات تداولية ومقامات تواصلية للمتلقي مختلف الأحوال. ويرجع الفضل في اختيار هذا الموضوع إلى البلاغة في الخطاب النبوي، وماست الحاجة إلى دراسة أساليبه البلاغية في التخاطب لمعالجة تحولات شديدة في المجتمع المعاصر وتقديمه كنموذج سديد لإصلاح الخطاب التقليدي مما أثّر سلبياً على علاقة الإنسان بثقافته الاجتماعية.

ومن أهم خصائص الخطاب النبوي اختيار ألفاظ جزلة مألوفة الاستعمال، سهلة الفهم، وواضحة المعنى، وبُعدها عن التكلف والتعقيد والتعقير والتشديق، وعن فضول القول، وكان خطابه - صلى الله عليه وسلم - يتجه إلى كل إنسان بقدر عقله وشعوره وثقافته، فالحيّز الذي يشغله الخطاب النبوي له عظيم الفوائد بفقه بلاغة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وتقدير فاعليتها على المتلقي بالتأثير والإقناع به. فالبلاغة النبوية في الخطاب كانت مبهرة وواضحة بذاتها لتحلّ محلّها بلاغة عمودها الأساس مؤهلات بيانية مفعّلة بالمنطق، ومبتكرة بصحة القول، ومنبع الأفكار؛ لأنه – صلى الله عليه وسلم – أفصح الناس جميعاً، وقد وهبه الله – سبحانه وتعالى – حلو المنطق، وعمق التذوق، وحسن الإفهام، ودقة الحس، وسليقة البيان، كما أشار إليها الإمام الرافعي بأن الخطاب النبوي:" لا ترى فيه لفظاً مضطرباً، ولا لفظة مستدعاة لمعناها، أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء المعنى"[7].

ظهر من هذا أن البلاغة في الخطاب ليست محصورة في استمالة الأسماع، وخلابة اللسان وما يعرف بالوظائف السيكولوجية والبديعية في البلاغة الجديدة في اصطلاح الحجاج عند علماء المحدثين الغربيين، بل هي في الأصل تنظيم المعرفة الشفوية أو فن القول والتخاطب في البلاغة القديمة، وهو الإقناع[8]. كما نجد ظواهرها في مقطعات كلام العرب الفصحاء، وجمل كلام الأعراب الخلّص، وأهل الخطابة من أهل الحجاز، ونتف من كلام النسّاك، ومواعظ من كلام الزهاد[9]. كان كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جامعاً لجميع المحاسن، وكانت عنده قدرة فائقة على التشقيق لضروب الكلام والاختراع وتصوير المعاني بأروع أسلوب، وابتداع

[7] الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، نشره دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى 1971م، ص 223.

[8] انظر: العمري، محمد، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، نشره مكتبة الأدب المغربي – أفريقيا الشرق، بدون تاريخ الطبع، ص 53.

[9] انظر: لإمام الجاحظ، البيان والتبيين، حققه درويس جويدي، ونشره المكتبة العصرية – لبنان، 2003م، ج2، ص 245.

الأخيلة لم تعرف في كلام العرب، ويمتاز الخطاب النبوي بالتأثير على المتلقي والإقناع به، كما تحدّث الإمام أبو عمرو بن الجاحظ (ت: 255ه) قائلاً: الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة[10]، وتمعّن الجاحظ في جوهر خطاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، من حيث حقيقة بلاغته وفصاحته ببيان صفة تركيب كلامه، قائلاً: وهو الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصنعة، ويسره عن التكلف[11]. وقد يتبادر إشكال في أذهان بعض الناس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد استخدم ألفاظاً غريبة ولكن عند التأمل يتضح أنه – صلى الله عليه وسلم – استخدم هذه الألفاظ حسب مقتضى الحال؛ لأنه – صلى الله عليه وسلم كان يراعي مقتضى الحال إلى درجة الكمال. والغرابة التي تجد لأول وهل هي إما لقلة العلم وفقدان مصطلحات العربية لأنها ليست غريبة في ذاتها، بل جاءت من عدم استخدامها.

قد عاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم - التكلّف والتقعير فلم يثبت أنه تكلّف قط في خطابه، بل لقد عاب التشديق والتقعير والتقعيد؛ كما وصف به الإمام الجاحظ بلاغة خطاب النبي بقوله:" إذ لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، وأعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معناه، ولا أبين في فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً"[12]. وكانت غايته - صلى الله عليه وسلم - بهذا التدليل الرائع في خطابه هو ترشيد الناس وتوجيههم إلى خير بأروع أسلوب.

المبحث الثاني: بلاغة الخطاب النبوي وأثرها على المتلقي

ينقسم هذا البحث إلى عنصرَيْن، الأول: سمات بلاغية في الخطاب النبوي، والثاني: أثر الخطاب النبوي على المتلقي، أولا نتحدث عن العنصر الأول، وهو:

1. سمات بلاغية في الخطاب النبوي:

يجمع علماء البلاغة قديماً وحديثاً على أن خطاب النبي - صلى الله عليه وسلم - قد تميّز بصفات تأتي بالأثر في السامع أو المتلقي سواء كان فعلاً أو انفعالاً. وخطابه - صلى الله عليه وسلم - قد كان مركّباً من العناصر الجوهرية في الكلام، ومبنياً على قلة العبارات لكثرة المفاهيم مع الاستغناء عن الإعادة، ومرتقياً بأسلوبه إلى مستوى سلس له نظم المفردات والألفاظ، حنّت

[10] المصدر نفسه، ج2، ص 244.

[11] انظر: لإمام الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص 244.

[12] المصدر نفسه، ج2، ص 245.

إليه المعاني والأفكار، وقد كان أغنى المستمع من كدّ التكلف والتقعير، وأراح متلقيه بكل إقناع؛ لأن النبي- صلى الله عليه وسلم - تهيأ خطابه لمهمة تنوير البشرية وإسعادها لإيصالها إلى المطلوب. فمن الملاحظة أن عناصر بلاغة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في خطابه تنحصر بعبارات قليلة المباني وكثيرة المعاني، فهي بلاغة تحتكم إلى أقيسة بيانية قائمة على حسن الإفهام مع الاستغناء عن الإعادة والمعاودة، وتلخّصها بإيجاز لا إطالة فيها، وإفهام لا تكلف فيها، وحقيقة لا صنعة لها ولا تخيل فيه[13]، فنتحدث عن بلاغة الإيجاز في الخطاب النبوي.

أولاً: ظاهرة الإيجاز في الخطاب النبوي

الإيجاز، وهو: حذف الفضول وتقريب البعيد بقلة الألفاظ لكثرة المعاني[14]. ومن أخص خصائص خطاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ومن أبرز صفات كلامه وبيانه الإيجاز، وكان – صلى الله عليه وسلم – يكره فضول الكلام والثرثرة، وكان يوصي بالإيجاز في الكلام ويرغب فيه، ومن ذلك تجد قوله لجرير بن عبد الله البجلي "يا جرير إذا قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف"[15] وكقوله - صلى الله عليه وسلم "**بُعثتُ بجوامعِ الكلم**"[16]. فسّره شراح الحديث بأنه: الكلام الموجز قليل الألفاظ وكثير المعاني.

نجد لهذا الأسلوب أسراراً فريدةً لا مثل لها في فن القول، ومواطن التخاطب، ويدخل جوامع الكلم في أحد قسمَيْ الإيجاز الذي هو إيجاز قصر، كما حديث أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - **عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: الإيمانُ قيَّد الفَتْكَ لا يَفْتِكُ مُؤمِنٌ"[17]**. هذا الحديث الشريف من جوامع الكلم التي خصّ النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - نفسه بها، عرفه من ذاق معرفة نظم الكلام وخواص التراكيب، واعتلى ذروة علم البيان والمعاني. ومثله الرواية **عن جرير بن عبد الله قال:"بَايَعْتُ النبيَّ – صلى الله عليه وسلم – عَلى إقامةِ الصَّلوةِ وإيتاءِ**

---

[13] - انظر: بليع عيد، مقدمة في البلاغة النبوية، نشره دار الكتب المصرية – المدينة المنورة، الطبعة الأولى 2008م، ص 66.

[14] العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، نشره دار إحياء الكتب العربية 1371هـ - القاهرة، ص 181.

[15] المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد (ت:285هـ)، الكامل في اللغة والأدب، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، نشره دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الثالثة، عام 1417هـ - 1997م، ج1، ص 10.

[16] الإمام البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، حققه محمد زهير بن ناصر الناصر، ونشره دار طوق النجاة، الطبعة الأولى 1422هـ، رقم الحديث 7013، ج2، ص 36.

[17] الهروي، القاري، أبو الحسن، نور الدين، الملا علي (1014هـ)، نشره دار الفكر – لبنان، الطبعة الأولى 1422هـ - 2002م، رقم الحديث 3548، ج6، ص 2319.

الزكوةِ"[18]. حيث تم حذف المفعول الثاني والتقدير إيتاء الزكوة مستحقيها، فهذا إيجاز حذف، والسر البلاغي كون ذلك الحذف متعين؛ إذ أن الزكاة لا تعطى إلا لمستحقيها، والمقام على توكيد ذكر الزكاة وليس بيان تفاصيل أهلها. وقوله - صلى الله عليه وسلم -"**مَنْ أَحْدثَ في أمْرِنا هذا مَا ليْسَ مِنْه فهو رَدٌّ**"[19]. حيث تم حذف المضاف إليه وإنابة المضاف محله؛ لأنه هو المقصود، والمعنى أن كل شيء مخالف لما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهو مردود على صاحبه، فكلمة "رد" أفادت معاني كثيرة مع قلة الألفاظ.

كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يتجنب جميع أساب الغموض من التقعر والتعقيد في الخطاب، والإغراب في القول، وفي طريقته في إفهام سامعيه. هذه خصيصة بارزة في خطابه وبيانه. هناك نصوص كثيرة تدل على ذلك، منها: قول سيدنا أنس بن مالك - رضي الله عنه -، **كانَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يُعِيْدَ الكَلِمَةَ ثلاثاً لِتُعْقَل عَنْه"**[20]، وفي سنن أبي داؤود عن عائشة – رضي الله تعالى عنها – قالت:"**كانَ كلامُ رسولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – كلاماً فصلاً يفْهمه كلُّ منْ سَمعَهُ**"[21]. لأن السامع بفطرته أميل إلى قلة الكلام وكثر المعاني، دون إعادة ومعاودة.

تجد هذه الصفة الممتازة في بلاغة الخطاب النبوي يتطلبها مقام التعليم والتربية والترشيد، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى. ومن الملاحظة في الخطاب النبوي كلام اختزلته ألفاظ قليلة وحوى معاني كثيرة وكبيرة، بل جرّ هذا الأسلوب إلى قاعدة مطردة عند المسلمين وصار مستعملا ومثلا سائراً.

ثانياً: ظاهرة الإفهام في الخطاب النبوي

إن البلاغة في الخطاب النبوي يتكوّن بصفتين: البُعد عن التصنع والتكلف، معناه أن كلامه - صلى الله عليه وسلم - يتحرى المقاصد والغايات لذلك يأتي مطبوعا على الطبيعة، غير

---

[18] البخاري، الجامع الصحيح، رقم الحديث 1401، ج1، ص 106.

[19] القاري، الملا علي القاري، رقم الحديث 140، ج1، ص 221.

[20] الترمذي، أبوعيسى، محمد بن عيسى (ت: 279هـ)، حققه مجموعة من المحققين مثل أحمد محمد شاكر، ونشره مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانثة 1395هـ - 1975م، ج2، ص 598.

[21] السجستاني، الأزدي، أبو داؤود، سليمان بن الأشعث (ت: 275هـ)، سنن أبي داؤود، رقم الحديث 4839، حققه شعيب الأرنؤوط، ومحمد كامل قره بللي، ونشره دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، عام 1430هـ - 2009م، الجزء 7، ص 208.

مشدودة إلى بلاغة الصور التحسينية العقيمة المحضة، ولا بلاغة مقامية خطابية ضيقة. فإذا تأمل في خطاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم – تجده مركّباً من قلة الألفاظ، وكثرة المعاني، ومنزهاً بكل تنزيه من تشديق وتقعير وتعقيد، وإن لاحظت في أساليب خطابه - صلى الله عليه وسلم - تجد أنها لا تخل من التزيين والتحسين والتجويد؛ فإنها الصنعة التي لا تجرد صاحبها من الصدق الفني والتجربة الأدبية، وما استعان به - صلى الله عليه وسلم - من أمور الجودة والصنعة؛ فإن غايته الأساسية بلوغ التسديد، وتهذيب القول، وبراعة القصد، ولا ينبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ويجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، لهذا لا ننفي عنه - صلى الله عليه وسلم - بعض السجع الذي لا تكلف فيه، كما تعرض له - صلى الله عليه وسلم - في مقامات عدة لا تعد ولا تحصى من باب أنه عمّ نفعه، وظهرت فائدته في توجيه المتلقي إلى المعنى المراد، فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم – بأروع أسلوب من الأساليب البلاغية في خطابه مما لم يسبقه إليه عربي، ولا ادعاه أحد، ولم يشاركه فيه عجمي، مما صار مستعملا ومثلا سائرا بين الناس كما قال الإمام الرافعي:"فلا جرم كان – صلى الله عليه وسلم – على حد الكفاية في قدرته على الوضع والتشقيق من الألفاظ، وانتزاع المذاهب البيانية، حتى اقتضت ألفاظ كثيرة لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها، وهي تعدّ من حسنات البيان، لم يتفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها، وقوة دلالتها، وغرابة القريحة اللغوية في تأليفها وتنضيدها، كلها قد صار مثلاً، وأصبح ميراثاً خالداً في البيان العربي"[22]، كقوله - صلى الله عليه وسلم -"**يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي**"[23]، و"**الآنَ حَمِيَ الوَطِيْسُ**"[24]، و"**النّاسُ كأسنَانِ المشْطِ**"[25]، و"**إنمَا الأعْمَالُ بالنِّيّاتِ**"[26]، و"**لا يُلْدَغُ المؤمِنُ مِنْ جُحْرٍ مرّتَيْن**"[27]. إذا تأملنا في كل هذه التعبيرات

[22] الرافعي، تاريخ آداب العرب، نشره دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة التاسعة، عام 1393هـ - 1973م، ص 277.

[23] النيسابوري، الحاكم، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين، حققه مصطفى عبد القادر، بدون تاريخ الطبعة، ج4، ص 678.

[24] البخاري، الجامع الصحيح، رقم الحديث 1571.

[25] القضاعي، أبو عبد الله، محمد بن سلامة، حققه حمدي بن عبد المجيد، ونشره مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى 1986م، رقم الحديث 131، ج1، ص 125.

[26] البخاري، الجامع الصحيح، رقم الحديث 3111.

[27] القزويني، أبو عبد الله، محمد بن يزيد (ت 273هـ، المعروف بابن ماجه، وماجة اسم أبيه يزيد)، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، ونشره دار إحياء الكتب العربية بدون تاريخ الطبع، ج2، ص 1381.

الرائعة وجدنا بحرا زاخرا من الأسرار اللطيفة والمعاني الكامنة التي لا مثل لها، واتضح من هذا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يستخدم تراكيب وعبارات لم تسمع من العرب قبله، كما صرح الخطابي والإمام الجاحظ[28].

نجد في كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم – غايته الأساسي هو إلقاء المعنى في نفس المتلقي، واستخدم كل الظواهر البيانية مع تقديم ذخيرة معرفية من النصوص الأدبية، والدينية، والأمثال، والحكم، كما جاء هذا الأسلوب من أرقى النماذج الإنسانية التي جمع بين رجاحة المنطق والعقل، واستقامة اللسان. وهذا ما ذهب إليه البلاغيون، وأسسوا قواعد البلاغة في ضوء بلاغة الخطاب النبوي، ومن الأصالة أن بلاغته - صلى الله عليه وسلم - في فن القول والتخاطب معجزة.

ثالثاً: ظاهرة مراعاة المخاطَب في الخطاب النبوي

كما نعرف أن الألفاظ تمتلك طاقات تعبيرية حسنة، لها تأثيراتها البالغة على المتلقي في إلقاء المعنى المقصود، وتلك الألفاظ تنتظم في التراكيب المتنوعة التي تختلف تبعاً لإرادة المخاطِب وأسلوبه في الخطاب الذي يتميز به عن غيره؛ وهو طريقة تأليف الألفاظ للتعبير بها عن المعاني والأفكار قصد الإيضاح والتأثير على المتلقي، أو بطريقة التصوير والتفكير، وكذلك تتباين الأساليب التعبيرية في الخطاب تبعاً لطبيعة المعنى، وجمال النسق والسياق، والغرض، وقوة التأثير وروعة الأداء. للخطاب تأثير ينبع من جمال عبارة وقدرة مبدعها على الإقناع والتأثير ورشاقة الأسلوب فيها، ولا يكتمل كل هذا إلا بإبداع أجزل الألفاظ والعبارات، وأقدرها على التعبير، وأروع أسلوب المخاطِب في التخاطب، ولا يخفى له ما للغة، باعتبار أن تكون وظيفة نظام الكلام البلاغي تبلغ أغراض المتكلم للسامع، وتبعاً لذلك تتباين أساليب المخاطِب في خطابه، فلكل موقف خطاب خاص به، ولكل مقامٍ مقال.

ولما كان غرض النبي - صلى الله عليه وسلم - الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - بأسلوبه الحسن في مخاطبة العقول والنفوس، قد اختلف وتنوّع تبعاً لتنوع أحوال المتلقين واختلافهم في المنطقة والثقافة، كأسلوب مخاطبة العالم يختلف عن أسلوب مخاطبة الجاهل، واستخدام أدوات التعبير في الخطاب الذي يفهمها كل واحد منهم مع تباين العقول

[28] ينظر للتفصيل: الخطابي، أبو سليمان، أحمد بن محمد إبراهيم، غريب الحديث، ج1، ص 66. وينظر أيضاً: الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص 16.

والمستويات، فالعالم يفهم من إشارة على حين أن الجاهل يحتاج إلى التفصيل والبيان في تلقيه الخطاب ليفهمه ويقتنع به.

وقد راعى سيدنا الكريم في خطابه مستوى الفهم للمخاطَب والمستويات العمرية والعقلية؛ لأن الحكمة النبوية - صلى الله عليه وسلم - في الخطاب أن يبلّغ رسالة الله - سبحانه وتعالى - كافة للناس، برعاية المستويات كلها على اختلافها بما يناسبها من الأساليب الخطابية، كما جاء الترشيد في قوله تعالى:"**أدْعُ إلى سبيلِ ربّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنةِ وَجادِلْهُمْ بالّتي هِيَ أَحْسنُ**"[29]، هذه الآية الكريمة تشير إلى الحكمة الإلهية من الأساليب المتنوعة في الخطاب النبوي للمخاطَبين من البشر ومراعاة ظروفهم وأحوالهم في السلوك الفكري والاجتماعي والأخلاقي، وكذلك هذا الترشيد البلاغي يدلّ على حكمة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وعلى حسن أسلوبه في الخطاب، وأحسن تعامله مع المخاطَب؛ لأن الكلمة البليغة المؤثرة التي تصل إلى القلوب وتؤثر على النفوس والعقول فتحثّهم على التفكير والتدبر.

إن من الشروط الأساسية لبلاغة الخطاب مراعاة مقتضى الحال، وهي تتمثل في رعاية مقتضى المخاطب والمقام. وكانت هذه ميزة من أهم ميزات بلاغة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الخطاب، وكان – صلى الله عليه وسلم – يستخدم اللغة كما يشاء فقد امتلك ناصية اللغة ونظمها امتلاكا تاما، وكان أقدر العرب فصاحة وبلاغة، وصفاً وبياناً، وكان يختار للتعبير أفضل العبارات والتراكيب، ويخاطب كل قبيلة بأسلوبها ولسانها ولهجتها على اختلاف لغات العرب، كقول السيدة بريدة – رضي الله تعالى عنها – "**كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أفصح الناس، كان يتكلم بالكلام، لا يدرون ما هو، حتى يخبرهم**"[30]

وقد تميز أسلوبه الخطابي - صلى الله عليه وسلم - بالبلاغة التي يعبّر فيها اللفظ القليل عن المعاني الجمة والكثيرة بسلاسة المنطق واللين والرقة، كما كان يكرر - صلى الله عليه وسلم - كلامه ثلاث مرات إذا قصد أن يؤكده على مسألة ما، وكان يحدّث الناس على قدر عقولهم، وكان يمتلك على قدرة فائقة في اختيار اللفظ المناسب لحال المخاطَب؛ فيخاطب بمقتضى الحال كما كان يخاطب الشباب بأسلوب يا بني؛ لأن هذا من أروع الأساليب في الخطاب بشفقة عليهم في تربيتهم في أمور دينهم ودنياهم.

---

[29] سورة النحل، الآية 125.

[30] - ابن الجوزي، الوفاء بأحوال المصطفى، ج2، ص 406.

وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعطي الكلام ما يستحق من اللهجة حتى إن ما يختلج في صدره كان يبدو على وجهه، وصفه سيدنا جابر – رضي الله عنه – قال: "**كان إذا خطب احمرّت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه، كأنه منذر جيش يقول: صبّحكم ومسّكم**"[31]، وكذلك كان لأشارته وحركته موضع كبير في إجادة الأداء، فحركته معبرة تجذب نظر السامع، وتنبّه الغافل، وتعين على التذكرة والحفظ، فإذا قصد ذكر القلب مثلا أشار إلى صدره، كما في قوله – صلى الله عليه وسلم -:"**التقوى ههنا**"[32]، وإذا أراد الملازمة أشار بسبابته والتي تليها، كما في قوله – صلى الله عليه وسلم – "**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**"، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما[33]

ومثله أيضاً حديث أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه -، قال: **قالَ رسولُ اللهِ – صلى اله عليه وسلم -: "لَنْ ينُجِيَ أحدٌ منْكُمْ عمَلُهُ، قَالُوْا: ولا أنْتَ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: "ولا أنَا إلا أن يتَغَمَّدنِي اللهُ مِنْه برَحْمَتِه"**[34]، قوله " ولا أنت يا رسول الله ؟" عُدل عن مقتضى الظاهر، وهو "ولا إياك"، فعدل إلى الجملة الاسمية من الجملة الفعلية المقدرة مبالغة، فيكون التقدير "ولا أنتَ ممن ينجيه عمله، استبعاد هذه النسبة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأما قوله - صلى الله عليه وسلم -"ولا أنا"، فيكون مطابقاً لقولهم: "ولا أنت"، أي ولا أنا ممن ينجيه عمله. ويحتمل أنهم فهموه وحيث يتأيّد به أنّ المتكلم يدخل في عموم كلمه، وأن خطاب الأمة يشمله.

وقوله - صلى الله عليه وسلم - "**بُني الإسْلاَمُ على خَمْسٍ: شَهَادةِ أنْ لّا إلَهَ إلا اللهُ، وأنَّ مُحمّداً رسولُ اللهِ، وإقامِ الصّلوة، وإيْتاءِ الزكاةِ، وحَجِّ البَيْتِ، وصَوْمِ رَمضَانَ**[35]. استخدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للتأكيد أسلوب الخبر الذي لا نجد فيه كلفة وغموضاً، وإغراباً؛ لأن غرضه - صلى الله عليه وسلم - أن يصل الحديث إلى سامعه برغم اختلاف لهجات القبائل

[31] مسلم، الجامع الصحيح، باب تخفيف الصلاة والخطبة، الجزء 4، ص 359.

[32] البيهقي، الخراساني، أبو بكر، أحمد بن الحسين (ت: 458هـ)، شعب الإيمان، حققه الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، ونشره مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، عام 1423هـ - 2003م، فصل فيما ورد من الأخبار، الجزء 9، ص 42.

[33] - البخاري، الجامع الصحيح، الجزء 6، ص 357، وانظر في رياض الصالحين، باب ملاطفة اليتيم، ص 137.

[34] الملا علي القاري، مرقاة المفاتيح، رقم الحديث 1305، ج3، ص 973.

[35] العقاد، محمود مصطفى، عبقرية محمد، نشره بيت الياسمين – القاهرة، الطبعة الأولى 2017م، ص 93.

العربية، واختلافهم في الأفكار والأحوال، ولا يخفى على المتأمل أن مثل هذا الأسلوب أكثر تأثيراً على المتلقي وأشد تأثيرا في تحريك مشاعره وإثارة عواطفه.

2. بلاغة الخطاب النبوي وأثرها على المتلقي:

الخطاب النبوي - صلى الله عليه وسلم – من حيث التأثير على المتلقي ينقسم إلى ثلاثة أقسام، وهي: الأول: الخطاب العقلي، والثاني: الخطاب الاحتجاجي. والثالث: الخطاب النفسي. من الأهم أن جذور البناء في بيان الحِكَم في الأساليب البلاغية في الخطاب النبوي تجدها على أساس قد رسم به رسول الله – صلى الله عليه وسلم - منهجاً بليغاً في التعامل مع النفس الإنسانية سواء كانت أمارة بالسوء أو لوامة أو مطمئنة، فاختار لكل نفس لها ما يناسبها من الأسلوب والتعامل، فمنها النفس التي تميل إلى التشدد والظلم ناسبه الزجر والوعيد، والنفس التي تميل إلى الإنكار والجحد ناسبته الحجة والإقناع، والنفس التي غلظت ناسبه الصبر والحلم بخير الأسلوب للتعامل معها.

الأول: بلاغة الأسلوب النبوي في الخطاب العقلي

هو الذي يميل إلى المنطق والعقل في تحليل الأمور العقليلة والمنطقية ومعرفة عواقبها ونتائجها، فما نافى العقل فهو يكون غير مقبول، وما قبله العقل فهو يكون محموداً، فأسلوب المنطق يتصف بالحيوية لما فيه من أدلة عقلية موجهة إلى المخاطَب ليجيب المخاطِب عليها. وخير دليل على مدى أهمية هذا الأسلوب في إقناع الطرف الآخر هو التأثير على المتلقي مع تغيير قناعاته الثقافية والذاتية، وهو ما استعمله النبي - صلى الله عليه وسلم - في خطابه مع الشباب الذي استأذنه بالزنى، فكان النبي – صلى الله عليه وسلم - حكيماً في مخاطبته، إذا استخدم معه أسلوب العقل والمنطق لإقناعه بعدول عن هذا الأمر القبيح إلى الأمر السعيد، كما يقول أبو أمامة – رضي الله تعالى عنه-: **إن فتىً شاباً أتى النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال: يا رسُولَ اللهِ، ائذن لي بالزّنى، فأَقْبل القَوْمُ عليْهِ فزَجَرُوْه، وقَالُوا: مَهْ مَهْ، فقالَ - صلى الله عليه وسلم -: أُدْنُه. فدَنَا مِنْه قريباً. قال - صلى الله عليه وسلم -: أتُحِبّه لِأمّكَ؟، قالَ: لا وَاللهَ، جَعَلَني اللهُ فدَاكَ. قال - صلى الله عليه وسلم -: ولاَ الناسُ يحبُّونَه لأمّاتِهِمْ. أفتُحبُّه لابْنتِكَ؟ لا وَاللهَ، جَعَلَني اللهُ فدَاكَ. قال - صلى الله عليه وسلم -: ولاَ النّاسُ يحبُّونَه لبَنَاتِهِمْ، قال صلى الله عليه وسلم: أتحبُّه لأخْتِكَ؟، لا وَاللهَ، جَعَلَني اللهُ فدَاكَ. قال - صلى الله عليه وسلم -: ولاَ الناسُ يحبُّونَه لعَمائِهِم. قالَ -صلى الله عليه وسلم -: أتُحبُّه لخالتِكَ؟، لا وَاللهَ، جَعَلَني اللهُ فدَاكَ. قال - صلى الله عليه وسلم -: ولا الناسُ يحبُّونُه لخالاتِهِمْ. قال: فوَضَعَ يدَه - صَلى الله**

عليه وسلم - عليه، وقال: اللهُمّ اغْفِرْ ذَنبَه وطَهِّرْ قَلْبَه وحَصِّنْ فَرْجَهُ. فَلَمْ يكُنْ بعْدَ ذلِكَ الفَتى يَلْتَفِتُ إلى شَيْءٍ"[36]. فالنبي - صلى الله عليه وسلم - قد خاطب الشباب بقدر عقله وشعوره، واستخدم في حواره المنطق واللين ليكون أقوى الأساليب في الإقناع والتأثير عليه، ثم أنه - صلى الله عليه وسلم - دعا له بمغفرة ذنوبه، وطهارة قلبه والعفة. فكان هذا الأسلوب الخطابي العقلي المنطقي من أبلغ الأساليب فيها للتأثير على المتلقي وتغيير المقصود الذي لا يتماشى مع التربية الحقة والفطرة السليمة، دون أن يفرض عليه قناعاته بالقوة والطاقة.

وقوله - صلى الله عليه وسلم - "**ألاَ هلْ بَلغْتُ، اللهمّ اشْهَدْ**"[37]، الظاهر أن الاستفهام في الحديث للتقرير والتوكيد أو بمعنى قد. فجاء قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على مقتضى حاله بعد أداء الأمانة النبوية في خطبة حجة الوداع، وليحمل الصحابة الكرام المسؤولية من بعده، فقد استخدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم – هذه العبارة الموجزة لإبلاغ الرسالة ليصل بها إلى مراده كل واحد من الصحابة الكرام، وتكرار هذه الجملة في حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – لازمة عظيمة الدلالة في مقامها لأنها لخّصت حياة كاملة في أيام معدودة؛ فما كانت حاية الرسول – صلى الله عليه وسلم – كلها بقولها وعملها وسكونها وحركتها إلا حياة للإبلاغ والدعوة. من المعلوم أن الكلمة الطيبة بأسلوب جذّاب ممتع منحة ربانية؛ لأنها تؤثر على المخاطب وتثير عواطفه وتُحرّك مشاعره، وهي جزء أساسي أصيل في التخاطب للتأثير على المتلقي.

وكذلك استخدم رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - ألفاظاً عديدة للقسم، مثل: والله، وأيم الله، والذي نفسي بيده، فالقسم قيمة بلاغية استخدمها العرب في التخاطب لتوكيد المعنى وإثباته، فقوله - صلى الله عليه وسلم - "**وأيمُ الله لَوْ أنَّ فاطمةَ بنتَ محمّدٍ سَرقَتْ لقَطَعْتُ يدَها**"[38]، استخدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم - القسم للتأكيد على المعنى المراد، واستدل بفاطمة للحذر من مخالفة أمر الله - سبحانه وتعالى -، والمساواة في إقامة الحدود الشرعية.

---

[36] الإمام الشيباني، أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل (ت 241هـ)، حققه شعيب الأرنؤوط، وآخرون، تحت الإشراف الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، ونشره مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1421هـ - 2001م، ج 2، ص 545.

[37] الملا علي القاري، مرقاة المفاتيح، رقم الحديث 2659، ج5، ص 1835.

[38] المرجع نفسه، رقم الحديث 3610، ج6، ص 2366.

الثاني: بلاغة الأسلوب النبوي في الخطاب الاحتجاجي

من أورع الأساليب النبوية في الخطاب الاحتجاجي الذي يُعد واحداً من أهم الأساليب التي تستخدمها العقول البشرية في مخاطباته ومحاوراته، والقصد منه الإتيان بالحجة والبرهان والدليل في إثبات الحق وإبطال الباطل وإلزام الخصم به، بعيداً عن العنف باللجوء إلى لغة المخاطَب للعقول بوساطة الاحتجاج المنطقي. إذ إن المجادلة مع الآخر والمحاورة معه بأن تكون بأحسن أسلوب في الخطاب.

فالنبي - صلى الله عليه وسلم - حين حاور المشركين وهم كفار جادلهم بالأسلوب الذي يحترم فيه إنسانيتهم بكل احترام، وهو المنهج الذي رسمه القرآن الكريم له؛ لأن الموعظة الحسنة التي تتعلق مع الموافقين، أما الجدال فيكون مع المخالفين، وأسلوب الجدال يحتاج إلى الاحتجاج بشروط بيّنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، هي أن يكون الجدال والحوار على الأمور المشتركة بين المتحاورين لا على نقاط الخلاف، والحكمة من ذلك اطمئنان الآخر أن ليس الهدف هو الغلبة والقهر على الآخر، فالنفوس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، بل الهدف هو إقناعها والتأثير فيها لتغيير ما هو خلاف الحق بتعبير صادق في الخطاب للدعوة إلى الحق. فالنبي - صلى الله عليه وسلم - كان محاوراً هادئاً يتسم بروح التسامح مع اليهود والنصارى وهم المخالفون لنهج الدين الإسلامي وأفكاره، ولعل خير دليل على ذلك ما ورد عنه - صلى الله عليه وسلم –

> **عن أنس - رضي الله عنه - قال: بلغ عبد الله بن سلام مَقْدم النبي- صلى الله عليه وسلم - إلى المدِيْنةِ، فأتَاه، فقَال: إني سَائِلكَ عنْ ثَلاثٍ يَعْلمُهنَّ إلا نبيٌّ، قالَ: مَا أوّلُ أشْراطِ السّاعةِ؟ ومَا أوّلُ طَعامٍ يَأكُلُه أهلُ الجنّةِ؟ وما بالُ الوَلدِ يَنْزِعُ إلى أبِيْه أو أُمّه؟ فقالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - أخْبَرني بهنَّ آنفاً جبريل. قال ابن سلام: ذاك عدوُّ اليَهُودِ مِنَ الملائكةِ، فقالَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: أما أولّ أشْراطِ السّاعَةِ فنَارٌ تَحْشُرُ النّاسُ من المشْرِقِ إلى المغْرِب، وأمّا أولّ طعَامٍ يَأكُلُه أهلُ الجنّة فزيادةُ كَبِدِ الحُوْتِ، وأما الشَّبَهُ في الْولدِ: فإنّ الرّجُلَ إذا غَشِيَ المرأةَ فسبَقَهَا مَاؤهُ كانَ الشَّبَهُ له، وإذا سبَقَ ماؤُهَا كان الشّبَهُ لها، قالَ: أَشْهد أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنّكَ رسولُ اللهِ"[39].**

[39] الإمام البخاري، الجامع الصحيح، رقم الحديث 3329، ج2، ص 132.

فالنبي - صلى الله عليه وسلم - جادل اليهودي الذي سأله عن أمور لا يعلمها إلا نبي على سبيل الظن منه طلباً للتيقن الذي ما اقتنع به، وأعلن إسلامه على الفور، إذا أعطاه بالحجة والدليل ما جعله يجضع لجانب الإقناع، ومن ثم قام بتغيير القناعات السابقة إلى الفكرة السديدة الجديدة.

الثالث: بلاغة الأسلوب النبوي في الخطاب العاطفي

من الواضح أن لأسلوب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الخطاب العاطفي أهمية كبرى؛ لأن هذا من أروع الأساليب التي تعتمد إلى استثارة العاطفة في نفس المتلقي لدفعها إلى الإقناع والتأثير، وذلك لا يكون إلا بالموعظة الحسنة التي تجذب النفس إلى الإنابة بالتذكير لها ترغيباً وترهيباً، كما ورد حديث عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما -، **قال: اشْتَكَى سعدُ بْنُ عُبادة شكوى لَه، فأتاه النبيُّ – صلى الله عليه وسلم - يَعُوْدُهُ معَ عبدِ الرّحمن بنِ عَوف وسعْدِ بن أبي وَقّاصٍ، وعبدِ اللهِ بْن مسعودٍ - رضى الله عنهم - فلمّا دَخَلَ علَيْه فوَجَدَه في غاشِيَتِه أهْلَه، فقالَ - صلى الله عليه وسلم -: قد قَضَى، قالوا: لا يا رسولَ اللهِ، فبَكى النبيُّ - صلى الله عليه وسلم -، فلمّا رأى الْقَوْمُ بُكاءَ النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - بَكَوْا، فقالَ - صلى الله عليه وسلم -: ألاَ تَسْمَعُونَ إنَّ اللهَ لا يُعذِّبُ بدمْعِ العَيْنِ ولا بحُزْنِ الْقَلْبِ، ولكِنْ يُعَذِّبُ بهذا – وأشَارَ إلى لِسَانِه – أو يرحم، وإنّ الميّتَ يُعذَّبُ ببُكاءِ أهْلِه علَيْه**"[40]. فالنبي - صلى الله عليه وسلم - يعرف أن للقلوب أحوال ضيقة كالأقفال، ولكل قُفل مفتاح، فكان يرفق بالمريض ويشفق عليه برحمة ورأفة، ويعظ من حضره ملمحاً إلى أمر هام هو كف اللسان عما يحرم. هذا هو الأسلوب الذي يتدفق منه ينابيع الحكمة، والأفكار وتلين له القلوب وتتأثر، وتخضع إلى الأمر السديد؛ لأن أسلوبه – صلى الله عليه وسلم - في الخطاب مليئا بالحِكَم في هذا الموقف صادراً عن فعل، وقول، وعمل.

فهذا من أهم الأساليب البلاغية في خطاب يؤثر في تغيير قناعات المتلقي السابقة، وهو مما امتاز به النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ كان وهو صادقاً في الرحمة والشفقة على المتلقي ورحيماً بالنفس الإنسانية التي تمتلك قوة التفكير فتكون محتاجة إلى إقناع عقلي، وقوة وجدانية، فتحتاج إلى إقناع عاطفي نفسي؛ فإن العاطفة تكون حيئذ عوناً على استمالة المدعو واجتذابه فهماً يدخل المتلقي منهما إلى نور الهداية ويستفيد بالترشيد.

المبحث الثالث: البلاغة البيانية في الخطاب النبوي

[40] الإمام البخاري، الجامع الصحيح، رقم الحديث 1304، ج1، ص 84.

أولا: التشبيه

ولا يخفى على المتأمل أن النبي – صلى الله عليه وسلم – استخدم أسلوباً رائعاً واعتمد في الوضوح على ألوان البيان وأدوات الإنابة في التعبير عن المعاني والأفكار من مثل التشبيه والاستعارة والكناية. وامتاز الخطاب النبوي بالأسلوب والدلالة من خلال السمات البيانية البلاغية، وتوجد في الخطاب النبوي القيم الجمالية التأثيرية والإقناعية بالتأثير على المتلقي، ولذا استعمل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ظاهرة التشبيه، وهي من أهم ألوان البيانية. كقوله - صلى الله عليه وسلم -:"**الصَّوْمُ جُنَّةٌ**[41]. استعمل - رسول الله صلى الله عليه وسلم – ظاهرة التشبيه تكمن ترغيب المتلقي في الحفاظة وإقناعه بقيمته، شبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصوم بـ"الجنة"، ثم وجهّ المتلقي بإعمال ذهنه واستخراج مكنون ثقافته إلى المراد، فإذا كان نصف الصورة من صنع المخاطِب، والنصف الآخر من صُنع المتلقي، لدعوته إلى إماطة اللثام عنها مما يحقق قوتها في الإقناع والتأثير، بأن يتلاحم فيه الجانبان: الروحي والحسي، بدلالات جديدة غير معهودة في عالم الواقع، هذا من فوائد الشبيه: الكشف عن المعنى المقصود، مع ما يكتسبه من قضية الإيجاز والاختصار[42].

ومن أمثلة التشبيه النبوي قوله – صلى الله عليه وسلم – في معرض تحذيره من رذيلة الحسد "**إياكم والحسد؛ فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**"[43]. وقوله:

"**مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها، يصعدون ويستقون الماء فيصيبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعوكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها: فإننا ننقبها من أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم غرقوا جميعاً**"[44].

---

[41] النسائي، الخراساني، أبو عبد الرحمان، أحمد بن شعيب، (ت: 303هـ)، حققه عبد الفتاح أبو غده، ونشره مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانية 1406هـ - 1986م، رقم الحديث: 2224.

[42] ابن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور، حققه الدكتور عبد الحميد هنداوي، ص: 90.

[43] الدرامي، سنن الدارمي، نشره شركة الطباعة الفنية المتحدة بالدراسة، بدون تاريخ الطبع، ص 31.

[44] الترمذي، سنن الترمذي، ج4، ص 470.

فقد استخدام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تشبيهاً عجيباً وموقفاً رائعاً رسم من خلاله صورة رائعة في حيويتها، وتعبيرها الفائق كل فوق، وتجسيدها لبيان العلاقة بين المجتمع والفرد. وخاصة في مجال تأثر المجتمع بسلوك أفراده، وتبيّن هذه الصورة أن حرية الفرد في المجتمع أن يكون لها حد تنتهي عنده لإفادة الناس وحماية المجتمع.

ثانياً: الاستعارة

وكذا استخدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في خطابه ظاهرة الاستعارة[45]، والاستعارة تؤثر على المستوى النفسي والفكري والانفعالي والجمالي لتحقيق الإقناع والتأثير على المتلقي. ومن أمثلة الاستعارة في الخطاب، قوله – صلى الله عليه وسلم –"**وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف**"[46]. وهذه المجازات اللطيفة والاستعارات العجيبة، هي من كلام العرب أن يقول القائل منهم إذا قصد أن يصف إنساناً بشدة الارتكاس في غيه، والارتكاس في عنان بغيه: قد فرخ الشيطان في رأسه أو قد عشش في قلبه. استخدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذلك الوضع وبنى على ذلك الأصل فقال "للشيطان في رؤوسهم مفاحص"، فيحتمل هذا القول أحد معنيين: أحدهما أن يكون قصد أن الشيطان قد بدأ يختدعهم ويضلهم ويغرهم، ولم يبلغ من ذلك غايته ولا استوعب خديعته كالقطاة التي بدأت باتخاذ المفحص لتبيض فيه، وترتيب فراخها فيه[47]، والمعنى الآخر أن يكون قصد أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم، فجعلها له مقيلاً ومبركاً وملعباً ومتمعكاً كما تتخذ القطاة لتأوي إليه وتستجن فيه، والمعنى الثاني هو المراد وهو الأولى[48].

وكذلك رواية سيدنا أنس بن مالك – رضي الله عنه –، **قال: مرّ النبي – صلى الله عليه وسلم – بإمرأة تَبْكِيْ عنْدَ قَبرٍ فقَال: اتّقِي اللهَ واصْبِريْ. قَالتْ: إلَيْكَ عَنِّي فإنّكَ لَمْ تُصَبْ بمصِيْبَتِي، ولم تَعْرِفْه، فقِيلَ لهَا: أنّه النّبيُّ – صلى الله عليه وسلم – فأتَتْ بابَ النّبي – صلى الله عليه**

[45] عرّفها علماء البلاغة بأنها: اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنيين: المجازي والحقيقي، مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. انظر: بيسوني، الدكتور عبد الفتاح فيود، علم البيان – دراسة تحليلية لمسائل البيان، نشره مؤسسة المختار للنشر، الطبعة الرابعة 1436هـ - 2015م، ص 155.

[46] البيهقي، أبو بكر، أحمد بن حسين، السنن الكبرى، نشره مكتبة السنة – ملتان، بدون تاريخ الطبع، ج9، ص 91.

[47] انظر: السيد، عز الدين، علي، الحديث النبوي، ص 217 – 229.

[48] انظر: الشريف، الرضي أبو الحسن، محمد بن حسين (ت: 406هـ)، المجازات النبوية، حققه الدكتور طه محمد الزيني، نشره المكتبة الشاملة، بدون تاريخ الطبع، ص 55- 56، و 166.

وسلم – فَلَمْ تجد عنْدَه بوابَيْن، فقالَتْ: لمْ أعْرِفْكَ. فقالَ: إنما الصّبرُ عنْد الصّدمَةِ الأوْلى[49].
تجد في الحديث الشريف استعارة في كلمة "الصدمة" لأول حدوث المصيبة؛ لأنها تصدم النفس والقلب والعقل، أصل الصدم: ضرب الشيء الصّلب بمثله، وهو التعبير الدقيق عما يصيب القلب والعقل وقت حدوث المصيبة، والمستعار منه :ضرب جسم صلب بمثله، والمستعار له ما يصيب القلب والعقل فجأة لحظة حدوث المصيبة، والمستعار هو الصدمة على سبيل الاستعارة التصريحية، هدف رسول الله – صلى الله عليه وسلم باستخدام ظاهرة الاستعارة إبلاغه رأفة ورحمة بالمرأة المكلومة حتى لا يجتمع عليها مصيبتان بفقدان الأجر، والهلاك، يتميز الخطاب النبوي كونه يوجه المتلقي إلى المراد مباشرة بحيث لا يجد أمامه إلا التسليم والإقناع به.

ثالثاً: الكناية

كذلك تجد في الخطاب النبوي ظاهرة الكناية، وهي من أروع الألوان البيانية التي تقدّم للمتلقي تعبيراً موحياً موجزاً، عرّفها الإمام عبد القاهر الجرجاني: أن يريد المخاطِب إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى آخر، هو تاليه وردفه في الوجود، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال، معنى ثانياً هو غرضك"[50]، أي تكون للكمة دلالة أخرى يفهم المتلقي المراد من اللفظ من خلالها، فيه اشتشراف وتشويق للمتلقي ما وراء المعنى، هو أسلوب طريف جميل، لما فيه من التصوير للمعنى والإقناع به، من خلال الانتقال من الملزوم إلى اللازم.

قوله – صلى الله عليه وسلم-:"**الآن حمي الوطيس**" والوطيس هو التنو الذي توقد فيه النار وتستعر، ولا شك في أن التعبير "حمي الوطيس" أجمل وأكثر تصويراً لاحتدام الحرب من قولنا: استمرت الحرب، واشتدت أو نحو ذلك، وفيه كناية عن شدة الحرب واحتدامها[51]،. كرواية عدي بن حاتم - رضي الله عنه – **قال: "سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:"اتّقُوْا النّارَ ولَوْ بشَقّ تَمَرةٍ**"[52]، جاء الخطاب النبوي في بيان أهمية الصدقة، قوله – صلى الله عليه وسلم -: "ولوكان بشق تمرة" كناية عن القلة للتدبر فيما لدى المتصدّق مهما كان مقداره أو

[49] البخاري، الجامع الصحيح، رقم الحديث 1283، باب زيارة القبور، ج2، ص 79.

[50] انظر: الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 262.

[51] انظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص 117.

[52] البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الزكاة، رقم الحديث: 1417.

حجمه؛ فإنه سبب الوقاية له من نار جهنم، وأعظم عند الله - سبحانه وتعالى - أجراً، واستخدم – رسول الله صلى الله عليه وسلم – أسلوب الأمر "اتقوا النار" لجذب انتباه المتلقي والتشويق إليه بكل اهتمام، وكانت غايته – صلى الله عليه وسلم - الإرشاد والنصح، قد محا فكراً خاطئاً، وقدّم له فكراً جديداً بأن المتلقي يُقْبِل على الصدقة مهما كانت كيفاً أو كماً بنية خالصة لوجه الله - سبحانه وتعالى -.اتضح مما سبق من أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان يراعي مقتضيات الأحوال في توجيه الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - بأسلوب يتناسب مع أفكار المخاطب ومستوى تفكيره العقلي وقناعته الشخصية، وأنه يراعي أحوال المخاطبين وعقولهم، برعاية الفروق الفردية والشخصية بينهم ليكون الكلام الملقى إليه أشد تأثيرا وأحسن وقعاً. بعد هذه الرحلة الممتعة الموجزة في بلاغة الخطاب النبوي وأثرها على المتلقي يمكن أن يقال:

1. استخدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في خطابه النحو الذي يقتضيه الوعي الأسلوبي عند العرب؛ لأن مهمته - صلى الله عليه وسلم - أن يوجه الناس إلى كل خير، فكثرت المعاني التداولية في خطابه - صلى الله عليه وسلم - كاستخدامه الأمر والاستفهام والنهي بحسب ما يقتضيه المقام، وتنوع مشارب المخاطَبين وطبيعتهم، واعتمد رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - في خطابه الوعي البلاغي حتي يكون خطابه أكثر تأثيراً على المتلقي.
2. الخطاب النبوي يأخذ أسلوبه السهل الممتنع من أجل بناء رأي جديد، أو تعديل فكر، أو إزالة معتقد من خلال عدد من القرائن البلاغية التي تخدم الغرض.
3. الأساليب البلاغية التي استخدمها الخطاب النبوي وهي تشتمل على نقاء اللفظ، والبعد عن فحش القول.
4. يمتلك الرسول - صلى الله عليه وسلم - ناصية الأساليب البلاغية، فيلقي كلاماً وأساليب مؤثّرة جداً، فيتجه السامع والمتلقي مباشرة نحو المراد طائعاً مستسلماً مع قناعة تامة بالحِكَمِ لا عن قناعة عمياء بثقته الكبرى برسول الله – صلى الله عليه وسلم؛ لأنه هو لا ينطق عن الهوي.

كل الأساليب البلاغية التي درسناها في الخطاب النبوي في هذا البحث، وهي من أقوى الأساليب وأجملها، وكل ظاهرة من ظواهرها البلاغية تحتاج إلى دراسة مستقلة؛ لأنّ لها أهمية كبرى لتخليق الجمال في الكلام والمعنى مطابقاً لمقتضى الحال بأروع الأساليب.

وهناك حاجة ماسة إلى الإبراز الجوانب الجمالية للبلاغة النبوي - صلى الله عليه وسلم - في العصر الحاضر؛ لأنها بديهة من البديهات وحقيقة من الحقائق الثابتة. وهي تستطيع تواجه عواصف العولمة والإلحاد؛ وذلك لإنقاذ الأجيال الناشئة من الرذائل المادية والإباحية.

☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆